**أنواع الخط العربي:**

من أربعة عشر قرناً ظهر أربعة نوعًا من الخط، سبعة أنواع هي المستخدمة بكثرة ما بين الخطوط الأكاديمية والكلاسيكية. ويجمع علماء العربية أن أصل الخط أخذ من الخط النبطي المأخوذ من الخط الآرامي ثم تطور الخط عبر مدرستين أولهما الكوفية والثانية الحجازية، أما الخط الكوفي فكان يميل إلى اليباس مع القسوة، بينما يمتاز الحجازي بليونته وسهولة كتابته إبان الدعوة الإسلامية، وقد بدأ التدوين القرآني في عهد الخلفاء الراشدين، وكان هذا الخط غير منّقط وغير مُهجى، ولم يكن له علامات لبدايات السور ونهاياتها ولا أرقام للآيات الكريمة، وكان لابد أن يتطور هذا الخط فمر بمراحل عدّة كوضع النقاط على الحروف أولاً ووضع التشكيل الخفيف والمصطلحات الضبطية ثم تطور الخط وتشعبت أنواعه بعدها على يد خطاطي العصر الأموي وأولهم" قطبة المحرر" الذي استخرج الأقلام الأربعة واشتق بعضها من بعض، وكان في عصره أكتب الناس على الأرض العربية، وقد بدأ يدخل من التدوين من خلال الزخرفة وإدخال التزيينات والذهب في الآيات القرآنية، وفي العصر العباسي ظهر "ابن مقلة" الوزير المعروف الذي كان خطه مضرب الأمثال في البهاء والجمال، فجوّد الخط ووضع موازين الحروف بأبعاد هندسية حتى وصل هذا الفن إلى مرتبة لا تضاهى، واستمر تطور الخط ووضع القواعد له حتى العصر العثماني على يد مصطفى الراقم الذي سار على نهجه بقية الخطاطين العثمانيين.

ومن أبرز أنواع الخطوط:

# الخط الكوفي

وهو من أجود الخطوط شكلا ومنظراً وتنسيقاً وتنظيماً، فأشكال الحروف فيه متشابهة، وزاد من حلاوته وجماله أن تزين بالتنقيط، وقد بدأت كتابته من القرن الثاني الهجري، ثم ابتكر الإيرانيون الخط الكوفي الإيراني وهو نوع من الخط الكوفي العباسي تظهر فيه المدات أكثر وضوحًا، ثم ظهر الخط الكوفي المزهر وفيه تزدان الحروف بمراوح نخيلية تشبه زخارف التوريق، وشاع استعمال هذا النوع في إيران في عهد السلاجقة، وفي مصر في العهد الفاطمي.

# خط النسخ

وضع قواعده الوزير ابن مقلة، وأُطلق عليه النسخ لكثرة استعماله في نسخ الكتب ونقلها، لأنه يساعد الكاتب على السير بقلمه بسرعة أكثر من غيره، ثم كتبت به المصاحف في العصور الوسطى الإسلامية، وامتاز بإيضاح الحروف وإظهار جمالها وروعتها.

## الخط المصحفي :

كتبت المصاحف بحروف خط الثلث، وبعد العناية والاهتمام به وتجويده سُمي بالمحقق، ثم تطورت الكتابة لتكون على صورة أخرى سميت بالخط المصحفي جمعت بين خط النسخ والثلث.

# الخط الديواني

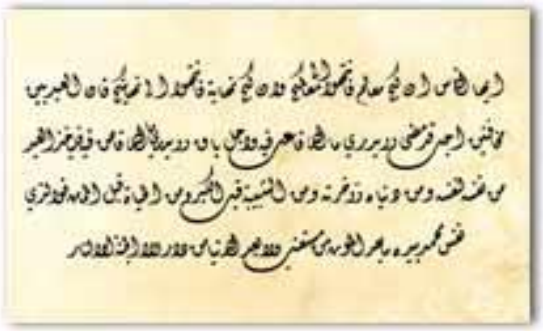

هو الخط الرسمي الذي كان يستخدم في كتاب الدواوين، وكان سرًّا من أسرار القصور السلطانية في الخلافة العثمانية، ثم انتشر بعد ذلك، وتوجد في كتابته مذاهب كثيرة، ويمتاز بأنه يكتب على سطر واحد وله مرونة في كتابة جميع حروفه.

# الخط الأندلسي - المغربي

مشتق من الخط الكوفي، وكان يسمى خط القيروان نسبة إلى القيروان عاصمة المغرب ، ونجده في نسخ القرآن المكتوبة في الأندلس وشمال إفريقيا، ويمتاز هذا الخط باستدارة حروفه استدارة كبيرة، ويمتحف المتروبوليتان عدة أوراق من مصاحف مكتوبة بالخط الأندلسي.

# خط الرقعة

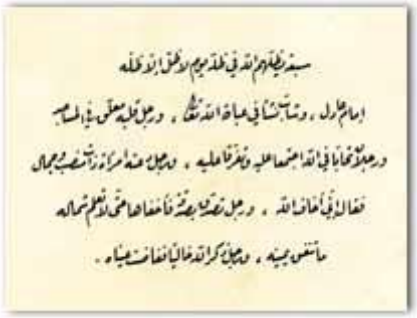

يمتاز هذا النوع بأنه يكتب بسرعة وسهولة، وهو من الخطوط المعتادة التي تكتب في معظم الدول العربية، والملاحظ فيه أن جميع حروفه مطموسة عدا الفاء والقاف الوسطية .

# الخط الفارسي

يعد من أجمل الخطوط التي لها طابع خاص يتميز به عن غيره، إذ يتميز بالرشاقة في حروفه فتبدو وكأنها تنحدر في اتجاه واحد، وتزيد من جماله الخطوط اللينة والمدورة فيه، لأنها أطوع في الرسم وأكثر مرونة لاسيما إذا رسمت بدقة وأناقة وحسن توزيع، وقد يعمد الخطاط في استعماله إلى الزخرفة للوصول إلى القوة في التعبير بالإفادة من التقويسات والدوائر، فضلاً عن رشاقة الرسم، فقد يربط الفنان بين حروف الكلمة الواحدة والكلمتين ليصل إلى تأليف إطار أو خطوط منحنية وملتفة يُظهر فيها عبقريته في الخيال والإبداع

# خط الثلث

من أروع الخطوط منظرا وجمالاً وأصعبها كتابة وإتقانا، يمتاز عن غيره بكثرة المرونة؛ إذ تتعدد أشكال معظم الحروف فيه؛ لذلك يمكن كتابة جملة واحدة عدة مرات بأشكال مختلفة، ويطمس أحيانا شكل الميم للتجميل، ويقل استعمال هذا النوع في كتابة المصاحف، ويقتصر على العناوين وبعض الآيات والجمل لصعوبة كتابته، ولأنه يأخذ وقتاً طويلاً في الكتابة.

# المبحث الرابع
# العلاقة بين الألفاظ ومعانيها

## أولاً- التناسب بين الألفاظ والمعاني:

نقل أهل أصول الفقه عن عبّاد بن سليمان الصيري، من المعتزلة، أنه ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع أن يضع، قال: وإلاّ لكان تخصيص الاسم المعيَّن بالمسمّى المعيَّن ترجيحاً من غير مرجّح. وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسئل ما سمّي «إذغاغ»؟ وهو بالفارسية الحجر، فقال: أجد فيه يُبساً شديداً، وأراه الحجر.

وأنكر الجمهور هذه المقالة وقال: لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة، ولما صحّ وضع اللفظ للضدَّين، كالقَرْء: للطّهر والحيض، والجون: للأبيض والأسود، وأجابوا عن دليله بأن التخصيص بإرادة الواضع المختار، خصوصاً إذا قلنا: الواضع هو الله تعالى، فإن ذلك كتخصيصه وجود العالم بوقت دون وقت. وأما أهل اللغة والعربية، فقد كادوا يُطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني، لكنّ الفرق بين مذهبهم ومذهب عبّاد أن عبّاداً يراها ذاتية موجبة، بخلافهم. وهذا كما تقول المعتزلة براعاة الأصلح في أفعال الله تعالى وجوباً، وأهل السنّة لا يقولون بذلك، مع قولهم إنه تعالى يفعل الأصلح، لكن فضلاً منه لا وجوباً. ولو شاء لم يفعله[٤٥].

---

(٤٤) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج ١ ص ٤٧. وقد عرضنا لشيء من هذا الموضوع في فصلنا الأول عند كلامنا على نشأة اللغة.

(٤٥) يُقر المعتزلة والسنّة معاً بوجود المناسبة بين اللفظ ومدلوله، ولكن المعتزلة يرونها مناسبة موجبة، على حين يراها الجمهور موجودة من غير وجوب. وهذا مظهر من مظاهر الاختلاف المشهور بينهم حول الفعل الأصلح.

وقد عقد ابن جنّي في الخصائص باباً لمناسبة الألفاظ للمعاني[٤٦]، وقال: اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقّته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحّته، قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا، فقالوا: صَرٌّ. وفي صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النَقَزَان والغَثَيان، فقابلوا بتوالي حركات الأمثال توالي حركات الأفعال.

قال ابن جني[٤٧]: وقد وجدت أشياء كثيرة من هذا النمط، من ذلك المصادر الرباعية المضعَّفة تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصَّلصلة، والقعقعة، والجرجرة، والقرقرة.

ووجدت أيضاً الفعَلى في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة، نحو البشكى[٤٨]، والجَمَزى[٤٩]، والوَلَقى[٥٠].

ومن ذلك باب استفعل، جعلوه للطلب، لما فيه من تقدّم حروف زائدة على الأصول، كما يتقدم الطلبُ الفعل، وجعلوا الأفعال الواقعة من غير طلب، إنما تفجأ حروفها الأصول، أو ما ضارع بالصيغة الأصول، فالأصول نحو قولهم: طعِم ووهب، ودخل وخرج، وصمد ونزل، فهذا إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت، ولم يكن معها دلالة تدلّ على طلب لها ولا إعمال

---

(٤٦) يعني: «باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني». ابن جني: الخصائص ج ٣ ص ١٥٢.
(٤٧) لاحظ أن السيوطي ينقل النص عن ابن جني بتصرّف.
(٤٨) امرأة بشكى: سريعة.
(٤٩) حمار جَمزى: وثّاب سريع.
(٥٠) الوَلَقى: عَدْو سريع فيه وثب.

فيها، وكذلك ما تقدَّمت الزيادة فيه على سمت الأصل، نحو: أحسن، وأكرم، وأعطى، وأولى، فهذا من طريق الصيغة بوزن الأصل في نحو: دحرج وسرهف[٥١]. وكذلك جعلوا تكرير العين، نحو: فرَّح وبشَّر، فجعلوا قوّة اللفظ لقوّة المعنى، وخصّوا بذلك العين، لأنها أقوى من الفاء واللام، إذ هي واسطة لها ومكنونة بها، فصار كأنها سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها، ولذلك تجد الإعلال بالحذف فيها دونه.

فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئبّ[٥٢]، عند عارفيه مأموم، وذلك أنّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدِّره، وأضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم: خضِم وقَضِم، فالخضم لأكل الرَّطب، كالبطيخ والقثاء وما كان نحوها من المأكول الرطب، والقضم لأكل اليابس نحو قضِمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك، وفي الخبر: قد يدرك الخضم بالقضم. أي قد يدرك الرخاء بالشدّة، واللين بالشظف، وعليه قول أبي الدرداء[٥٣]: يخضمون ونقضم والموعد الله. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطب، والقاف لصلابتها لليابس، حَذْواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث. ومن ذلك قولهم النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى منه، قال الله سبحانه: «فيهما عينان نضّاختان»[٥٤]، فجعلوا الخاء لرقّتها للماء الخفيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه. ومن ذلك قولهم القدّ طولاً، والقطّ عرضاً، لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعاً له من

---

(٥١) سرهفتُ الطفل: أحسنت غذاءه.

(٥٢) متلئب: مستقيم ومستوٍ.

(٥٣) عويمر بن مالك بن قيس (– ٦٥٢ م)، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، وفي الحديث «عويمر حكيم أمتي»، ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاضٍ بها. وهو أحد الذين جمعوا القرآن، حفظاً، بلا خلاف. (الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٩٨).

(٥٤) الرحمن: ٦٦.

الدال المستطيلة، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض، لقربه وسرعته. والدال المماطِلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولاً.

قال: وهذا الباب واسع جداً لا يمكن استقصاؤه.

قلت[٥٥]: ومن أمثلة ذلك ما في الجمهرة: الخنن[٥٦] في الكلام أشد من الغنن، والخُنّة أشد من الغُنّة[٥٧]، والأنيت أشد من الأنين، والرنين أشد من الحنين.

وفي الإبدال لابن السكيت[٥٨] يقال: القبصة أصغر من القبضة. قال في الجمهرة: القبص: الأخذ بأطراف الأنامل، والقبض الأخذ بالكف كلها. وفي الغريب المصنَّف عن أبي عمرو: هذا صوغ هذا، إذا كان على قدره، وهذا سوغ هذا، إذا ولد بعد ذلك على أثره. ويقال: نقب على قومه ينقُب نقابة من النقيب وهو العريف، ونكب عليهم ينكبُ نكابة وهو المنكب، وهو عون العريف.

وقال الكسّائي: القضم للفرس، والخضْم للإنسان.

وقال غيره: القضم بأطراف الأسنان: والخضم بأقصى الأضراس.

وقال أبو عمرو: النضح بالضاد المعجمة: الشرب دون الريّ. والنصح بالصاد المهملة: الشرب حتى يروى. والنشح بالشين المعجمة دون النضح بالضاد المعجمة.

---

(٥٥) لاحظ أن السيوطي، كعادته، يجمع الأمثلة المناسبة من المصادر المختلفة.

(٥٦) الخنن: خروج الكلام من الخياشيم.

(٥٧) الغُنّة: صوت يخرج من الخيشوم.

(٥٨) يعقوب بن إسحاق (٨٠٢ - ٨٥٨ م). إمام في اللغة والأدب. أصله من خوزستان. تعلّم ببغداد. اتصل بالمتوكل العبّاسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله لسبب مجهول. من كتبه «إصلاح المنطق»، و«الألفاظ»، و«الأضداد»، و«القلب والإبدال». (الزركلي: الأعلام. ج ٨ ص ١٩٥).

وقال الأصمعي من أصوات الخيل: الشَّخير، والنَّخير، والكرير، فالأوّل من الفم، والثاني من المنخرين، والثالث من الصدر.

وقال الأصمعي: الهتل من المطر أصغر من الهطل.

وفي الجمهرة: العطعطة بإهمال العين: تتابع الأصوات في الحرب وغيرها والغطغطة بالإعجام: صوت غليان القدر وما أشبهه.

والجمجمة بالجيم: أن يخفي الرجل في صدره شيئاً ولا يبديه. والحمحمة بالحاء: أن يردّد الفرس صوته ولا يصهل.

والدحداح بالدال: الرجل القصير. والرحراح بالراء: الإناء القصير الواسع.

والجفجفة بالجيم: هزيز الموكب وحفيفه في السير. والحفحفة بالحاء: حفيف جناحي الطير.

ورجل دحدح بفتح الدالين وإهمال الحاءين: قصير، ورجل دُخدُخ بضم الدالين وإعجام الخاءين: قصير ضخم.

والجرجرة بالجيم: صوت جرع الماء في جوف الشّارب والخرخرة بالخاء: صوت تردّد النفس في الصدر، وصوت جري الماء في مضيق. والدردرة: حكاية صوت الماء في بطون الأودية وغيرها إذا تدافع فسمعت له صوتاً. والغرغرة: صوت ترديد الماء في الحلق من غير مجٍّ ولا إساغة.

والقرقرة: صوت الشراب في الحلق. والهرهرة: صوت ترديد الأسد زئيره.

والكهكهة: صوت ترديد البعير هديره. والقهقهة: حكاية استغراب[٥٩] الضحك.

---

(٥٩) استغرب في الضحك: اشتدّ وأكثر.

والوعوعة: صوت نُباح الكلب إذا ردَّده. والوقوقة: اختلاط أصوات الطير. والوكوكة: هدير الحمام.

والزعزعة بالزاي: اضطراب الأشياء بالريح. والرعرعة بالراء: اضطراب الماء الصافي والشراب على وجه الأرض. والزغزغة بالزاي وإعجام الغين: اضطراب الإنسان في خفّة ونزق. والكركرة بالكاف: الضحك. والقرقرة بالقاف: حكاية الضحك إذا استغرب الرجل فيه.

والرفرفة بالراء. صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح. والزفزفة بالزاي: صوت حفيف الريح الشّديد الهبوب، وسمعت زفزفة الموكب إذا سمعت هزيزه[٦٠].

والسفسفة بإهمال السين: تحريك الشيء من موضعه ليقلع، مثل الوتد وما أشبهه، ومثل السن. والشغشغة بالإعجام: تحريك الشيء في موضعه ليتمكّن، يقال: شغشغ السّنان في الطعنة إذا حرّكه ليتمكّن.

والوسوسة بالسين: حركة الشيء كالحلي. والوشوشة بالإعجام: حركة القوم وهمس بعضهم إلى بعض.

فانظر إلى مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقلّ وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشدّ والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأسهل حسًّا، ومن ذلك المدّ والمطّ، فإن فعل المطّ أقوى لأنه مدّ وزيادة جذب، فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال.

قال ابن دريد[٦١]: والمدّ والمتّ والمطّ متقاربة في المعنى. ومن ذلك

---

(٦٠) هزيزه: صوته.

(٦١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المولود في البصرة (٨٣٨ - ٩٣٣ م). أحد أئمة اللغة =

الجُف بالجيم: وعاء الطلعة[٦٢] إذا جفّت، والخُفّ بالخاء: الملبوس وخف البعير والنعامة، ولا شك أنّ الثلاثة أقوى وأجلد من وعاء الطلعة فخصّت بالخاء التي هي أعلى من الجيم.

وفي ديوان الأدب للفارابي[٦٣]: الشّازب: الضامر من الإبل وغيرها، والشّاصب: أشد ضمراً من الشّازب. وفيه قال الأصمعي: ما كان من الرياح من نفخ فهو برد، وما كان من لفح فهو حرّ.

وفي فقه اللغة للثعالبي: إذا انحسر الشعر عن مُقدّم الرأس فهو أجلح، فإن بلغ الانحسار نصف رأسه فهو أجلى وأجله.

وفيه: النّقش في الحائط، والرقش في القرطاس. والوشح في اليد، والوسم في الجلد، والرّشم على الحنطة والشعير، والوشي في الثوب.

وفيه الحَوَص: ضيق العينين، والحَوَص: غؤورهما مع الضيق. وفيه: اللّسَب من العقرب، واللسع من الحية.

وفيه: وسخ الأذن: أف، ووسخ الأظفار: تُفَلٌ.

وفيه: اللّثام: النقاب على حرف الشفة، واللّغام: على طرف الأنف. وفيه: الضرب بالرّاحة على مُقدّم الرأس: صقع، وعلى القفا: صفْع، وعلى الخد ببسط الكف: لطْم، وبقبض الكف: لكْم، وبكلتا اليدين: لدْم، وعلى الجنب بالإصبع: وخْز، وعلى الصدر والجنب: وكْز ولكْز، وعلى الحنك والذقن: وهْز ولَهْز.

---

= والأدب. اشتهر بسعة الحفظ وقوة الذاكرة. تتلمذ عليه السيرافي والزجّاج وابن خالويه. له «الاشتقاق»، و«المقصور والممدود»، و«تقويم اللسان»، ومعجم «الجمهرة» (الزركلي: الأعلام. ج ٦ ص ٨٠).

(٦٢) الطّلْعة واحدة الطّلع وهو نوْر النخل ما دام في الكافور (كافور الطلعة وعاؤها).

(٦٣) إسحق بن إبراهيم بن الحسين (- ٩٦١ م) من أهل فاراب، انتقل إلى اليمن وأقام في زبيد، له معجم سمّاه «ديوان الأدب» (الزركلي: الأعلام. ج ١ ص ٢٩٣).

وفيه يقال: خذفه بالحصى، وحذفه بالعصا، وقذفه بالحجر.

وفيه إذا أخرج المكروبُ أو المريضُ صوتاً رقيقاً فهو الرنين، فإن أخفاه فهو الهنين، فإن أظهره فخرج خافياً فهو الحنين. فإن زاد فيه فهو الأنين، فإن زاد في رفعه فهو الخَنين.

فانظر إلى هذه الفروق وأشباهها باختلاف الحرف بحسب القوة والضعف، وذلك في اللغة كثير جداً، وفيما أوردناه كفاية.

ثانيًا- التقـــارب بيـــن الألفـــاظ المتقاربـــة والمعـــانـــي:

هذا غَوْرٌ من العربية لا يُنْتَصَفُ [٢] منه ولا يكاد يُحاطُ به. وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غُفْلا مَسْهُوًّا عنه. وهو على أضرب:

منها اقتراب الأصلين الثلاثيين، كضيّاطٍ وضيطار [٣]، ولُوقة وألوقة [٤] ورِخْوٍ ورِخْوَدٍّ [٥]، وينْجُوج وأَلَنْجوج [٦]. وقد مضى ذكر ذلك [٧].

ومنها اقتراب الأصلين، ثلاثياً أحدهما، ورباعياً صاحبه، أو رباعيّاً أحدهما وخماسيّاً صاحبه؛ كَدِمثٍ ودِمَثْر [٨]، وسَبِط

(١) تصاقب: تقارب.
(٢) انتصف منه: استوفى حقه منه كاملا.
(٣) الضياط: الرجل الغليظ المتمايل في سيره، والضيطار: الطويل أو الضخم ويقال أيضاً للئيم.
(٤) اللوقة والألوقة: الزبد بالرطب.
(٥) الرخو: اللين، والرخود: الرجل اللين العظام.
(٦) الينجوج والألنجوج: عود طيب الرائحة للبخور. ويرى الدكتور يعقوب بكر أن أصله فارسي له صيغ متعددة (نصوص في فقه اللغة ١/٩٦)
(٧) الخصائص ٢ / ٤٥.
(٨) دمث ودمثر: سهل.

وسِبَطْر [1] ، ولؤلؤ ولآل [2] والضَبَغْطى والضَبَغْطَرى [3] .

ومنه قوله :

قد دَرْدَبَتْ والشيخُ دَرْدَبيس [4]

وقد مضى هذا أيضاً [5] .

ومنها التقديم والتأخير على ما قلنا في الباب الذي قبل هذا من تقليب الأصول نحو ( ك ل م ) و ( ك م ل ) و ( م ل ك ) ونحو ذلك . وهذا كله والحروف واحدة غير متجاورة . لكن من وراء هذا ضرب غيره ؛ وهو أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني . وهذا باب واسع .

من ذلك قول الله سبحانه « ألم تَرَ أنَّا أرْسلْنا الشَّياطِينَ عَلَى الكَافِرينَ تؤُزُّهُمْ أزّاً » أي تزعجهم وتقلقهم . فهذا في معنى تهزّهم هزّاً ، والهمزة أخت الهاء [6] ؛ فتقارَب اللفظان لتقارب المعنيين .

---

(١) السبط والسبطر : الطويل .

(٢) اللآل : بائع اللؤلؤ .

(٣) كلمة يفزع بها الصبيان .

(٤) دردب : خضع . والدردبيس الشيخ الفاني ويقال أيضاً للمرأة العجوز .

(٥) الخصائص : ١ / ٤٩ .

(٦) ذكر سيبويه أن الهمزة والهاء من أقصى الحلق ( ٢ / ٤٠٥ ) . وقد أثبت علم الأصوات الحديث أن الهمزة ليس صوتاً مجهوراً ولا مهموسا ، وهي صوت صامت حنجري انفجاري . أما الهاء فهي صوت صامت حنجري مهموس . ولعل ذلك هو السبب الذي من أجله ذكر ابن جني أن الهمزة والهاء أختان وأن الهمزة أقوى من الهاء . انظر : علم اللغة للدكتور محمود السعران ص ١٧٠ ، ١٩٥ .

وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ ؛ لأنك قد تهزّ ما لا بال له ؛ كالجذْع وساق الشجرة ونحو ذلك .

ومنه العَسْف والأسف ؛ والعين أخت الهمزة [1] كما أن الأسف يعسِف النفس وينال منها ، والهمزة أقوى من العين ؛ كما أن أسف النفس أغلظ من التردّد بالعسْف . فقد ترى تصاقُب اللفظين لتصاقب المعنيين .

ومنه القَرْمة وهي الفَقْرة تُحزّ على أنف البعير . وقريب منه قلّمت أظفاري ؛ لأن هذا انتقاص للظُفُر ، وذلك انتقاص للجِلْد. فالراء أخت اللام [2] ، والعملان متقاربان . وعليه قالوا فيها : الجَرْفة ، وهي من ( ج ر ف ) [3] وهي أخت جَلَفت القَلَم ، إذا أخذت جُلْفته ، وهذا من ( ج ل ف ) ، وقريب منه الجَنَف وهو المَيْل ،

---

(١) العين عند سيبويه من وسط الحلق (٢ / ٤٠٦ ) والهمزة من أقصاه . والعين في العلم الحديث صوت مجهور حلقي . والهمزة على ذلك أقوى من العين كما قرر ابن جني . ( السعران ١٩٥ ) .

(٢) اللام صوت مجهور سِني جانبي ، والراء صوت مجهور لثوي مكرر ، أي أنهما متقاربان في المخرج ، ولذلك قال أبو الفتح إنهما أختان . وانظر السعران ١٨٥ — ١٨٧ .

(٣) جرفه : كسحه .

وإذا جَلَفت [1] الشيء أو جَرفته فقد أمَلْته عمّا كان عليه وهـذا من ( ج ن ف ) .

ومثله تركيب ( ع ل م ) في العلامة والعَلَم . وقالوا مع ذلك : بَيْضة عَرْماء ، وقطيع أعرم ، إذا كان فيها سواد وبياض ، وإذا وقع ذلك بأن أحد اللونين من صاحبه ، فكان كل واحد منهما عَلَماً لصاحبه . وهو من ( ع ر م ) قال أبو وَجْزة السعديْ :

ما زِلن يَنْسُبن وَهْنا كلَّ صادقةٍ باتت تباشِر عُرْما غير أزواج
حتى سلكن الشوى منهن في مَسَكٍ من نَسْل جوّابة الآفاق مهداج [2]

ومن ذلك تركيب ( ح م س ) و ( ح ب س ) قالوا : حبست الشيء وحَمِس الشرّ إذا اشتد . والتقاؤهما أن الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازّا ، فكان ذلك كالشر يقع بينهما .

---

(١) الجلفة : القشرة .

(٢) معنى البيتين أن حُمر الوحش أثارت القطا التي كانت تتعهد بيضها ( الذي ليس زوجيا ) حتى وصلت إلى المياه التي تحيط أرجلها كالخلاخيل وهذه المياه جلبتها رياح ذات أصوات. ( الوهن: بعد منتصف الليل، والصادقة كناية عن القطا ، وعُرم غير أزواج : بيض فيه نقط بيض وأخرى سود وهي غير أزواج لأنها لا تضع بيضها إلا أفراداً . والمسك الأسورة ، والشوى الأطراف وجوابة الآفاق أي الريح . )

ومنه العَلْب : الأثر ، والعَلْم : الشق في الشفة العليا . فذاك من ( ع ل ب ) والباء أخت الميم [1] ؛ قال طرفة :

كأنّ عُلوب النِسْع في دَأَياتِها
مواردِ من خَلْقاء في ظهرِ قَردَدِ [2]

ومنه تركيب ( ق ر د ) و ( ق ر ت ) قالوا للأرض : قَرْدَد ، وتلك نِبَاك [3] تكون في الأرض ، فهو من قَرِد الشيء وتقرّد إذا تجمّع ؛ أنشدنا أبو عليّ :

أهْوَى لها مِشْقَصٌ حَشْرٌ فَشَبْرَقها
وكنت أدعو قَذاها الإثمِدَ القَرِدا [4]

أي أسميّ الإثمد القرد أذى لها . يعني عينه . وقالوا : قَرَت الدم

---

(١) الباء صوت صامت مجهور شفوي انفجاري ، والميم صوت صامت مجهور شفوي أغن ؛ فهما أختان من حيث المخرج والجهر .

(٢) العلوب جمع عَلْب ، وهي الآثار . والنِسْع سَيْر تُشد به الرحال. والدأيات ضلوع الصدر ، والموارد جمع مورد وهو طريق الواردين إلى الماء . خلقاء ملساء . والقردد الأرض الصلبة المستوية . يشبه آثار الحزام على ضلوع الناقة من كثرة ما حملت بآثار الموارد في الصخرة الملساء .

(٣) جمع نبكة وهي التل .

(٤) أهوى لها : انقض عليها . والمشقص : النصل العريض ، والحشر : الدقيق . شبرقها : مزقها . يعني أن عينه أصابها سهم ففقأها ، وكان من قبل حريصاً عليها حتى إنه كان يرى الإثمد أي الكحل قذى لها .

عليه أي جَمَد ، والتاء أخت الدال كما ترى [1] . فأما لِم خُصَّ هـذا المعنى بذا الحرف فسنذكره في باب يلي هذا بعون الله تعالى .

ومن ذلك العَلَز : خفة وطيش وقَلَق يعرِض للإنسان ، وقالوا ( العِلَّوْص ) لوجع في الجوف يلتوي له الإنسان ويقلق منه . فذاك من ( ع ل ز ) وهذا من ( ع ل ص ) والزاي أخت الصاد [2] .

ومنه الغَرْب : الدَلْو العظيمة ، وذلك لأنها يُغرف من الماء بها ، فذاك من ( غ ر ب ) وهذا من ( غ ر ف ) أنشد أبو زيد [3] :

كأن عينيَّ وقد بانوني غَرْبان في جَدْولِ مَنْجَنُون

واستعملوا تركيب ( ج ب ل )و ( ج ب ن )و ( ج ب ر ) لتقاربها

---

(١) التاء صوت صامت مهموس سني انفجاري ، والدال صوت صامت مجهور سني انفجاري ؛ فهما يشتركان في كل الصفات ما عدا الجهر والهمس ، والدال هي النظير المجهور للتاء .

(٢) الزاي صوت صامت مجهور لثوي احتكاكي ، والصاد صامت مهموس لثوى احتكاكي مطبق ، فهما يشتركان في كل شيء فيما عدا الجهر والهمس والإطباق .

(٣) بانوني : فارقوني . المنجنون : ما يُستقى به . يصف عينيه وقد فارقته الأحبة بأنهما من كثرة الدموع مثل غربين عند جدول . ويرى الدكتور يعقوب بكر أن كلمة منجنون تعود إلى أصل يوناني ومعناها : عجلة حولها حبل أو نحوه لرفع حمل ثقيل ، وهي الكلمة التي انتهت إلى Machine . ( نصوص في فقه اللغة ١/٢٠٤ ) .

في موضع واحد ، وهو الالتئام والتماسك . منه الجَبل لشدته وقوّته ، وَجبُن إذا استمسك وتوقّف وتجمع ، ومنه جَبَرت العظْم ونحوه أي قوّيته .

وقد تقع المضارعة في الأصل الواحد بالحرفين؛ نحو قولهم :السحيل، والصهيل [1] ، قال :

كان سحِيلَه في كل فجرٍ  على أحساء يمؤودٍ دعاء [2]

وذاك من ( س ح ل ) وهذا من ( ص ه ل ) والصاد أخت السين [3] كما أن الهاء أخت الحاء [4] . ونحوٌ منه قولهم ( سحل ) في الصوت و ( زحر ) [5] والسين أخت الزاي ؛ كما أن اللام أخت الراء :

وقالوا ( جَلَف وجَرَم ) [6] فهذا للقَشْر ، وهذا للقطْع ، وهما متقاربان معنى ، متقاربان لفظاً ؛ لأن ذاك من ( ج ل ف ) وهـــذا من ( جرم ) .

---

(١) السحيل صوت البغل ، والصهيل صوت الفرس .

(٢) الأحساء جمع حِسْى: الرمال يكون فيها ماء ، ويمؤود : اسم وادٍ .

(٣) السين صامت مهموس لثوي احتكاكي، والصاد صامت مهموس لثوي احتكاكي مطبق ؛ فهما أختان ولا يفترقان إلا في الإطباق .

(٤) الهاء صامت مهموس حنجري احتكاكي والحاء صامت مهموس حلقي احتكاكي .

(٥) الزحير إخراج الصوت بأنين عند عمل أو شدة .

(٦) جرمه يجرمه جَرْماً : قطعه .

وقالوا : صال يصول ، كما قالوا : سار يسور [1] .

نعم ، وتجاوزوا ذلك إلى أن ضارعوا بالأصول الثلاثة : الفاءوالعين واللام ، فقالوا : عصر الشيء ، وقالوا : أزَله [2] ، إذا حبسه ، والعصر ضرب من الحبس . وذاك من ( ع ص ر ) وهذا من ( أزل ) والعين أخت الهمزة ، والصاد أخت الزاي ، والراء أخت اللام . وقالوا : الأزم : المنْع ، والعَصْب : الشدّ ؛ فالمعنيان متقاربان ، والهمزة أخت العين ، والزاي أخت الصاد ، والميم أخت الباء .وذاك من ( أزم ) وهذا من ( ع ص ب ) .

وقالوا : السلب والصرف ، وإذا سُلِب الشيء فقد صُرِف عن وجهه . فذاك من ( س ل ب ) وهذا من ( ص ر ف ) والسين أخت الصاد ، واللام أخت الراء ، والباء أخت الفاء [3]

وقالوا : الغَدْر ، كما قالوا الخَتْل ، والمعنيانمتقاربان ، واللفظان متراسِلان ، فذاك من ( غ د ر ) وهذا من ( خ ت ل ) فالغين أخت

---

(١) سار يسور سَوْراً وسُؤُراً : وثب وثار .

(٢) أزله يأزله أزلا : حبسه .

(٣) الباء صامت مجهور شفوي انفجاري ، والفاء صامت مهموس شفوي سِني احتكاكي .

الخاء [1] ، والدال أخت الفاء ، والراء أخت اللام .

وقالوا : زأر ؛ كما قالوا : سَعَـل ؛ لتقارب اللفظ والمعنى .

وقالوا : عَدَن بالمكان ؛ كما قالوا تأطّـر ، أي أقام وتلبّـث .

وقالوا : شرب ؛ كما قالوا : جَلَـف لأن شارب الماء مُفْـنٍ له ، كالجَـلْـف للشيء .

وقالوا : ألَتَـه [2] حقّـه ؛ كما قالوا : عانده . وقالوا : الأُرْفَةُ للحدّ بين الشيئين ؛ كما قالوا : علاَمة . وقالوا : قفز ، كما قالوا : كَـبَـس ، وذلك أن القافز إذا استقرّ على الأرض كبسها . وقالوا : صهل ؛ كما قالوا : زأر . وقالوا الهِـتْرُ ؛ كما قالوا : الإدْل [3] ، وكلاهما العجب . وقالوا : كَلِـف به ؛ كما قالوا : تقرّب منه ، وقالوا : تجعّـد ، كما قالوا :

---

(١) الغين والخاء عند العرب القدماء صوتان حلقيان ، والغين في العـــلم الحديث صامت مجهور احتكاكي يخرج من أقصى الحنك ، والخاء صامت مهموس احتكاكي يخرج من أقصى الحنك .

(٢) ألته : نقصه .

(٣) الهتر هو العجب ، والإدل : وجع يأخذ في العنق ، وقد استدرك محقق الخصائص على هذه الكلمة فقال إنها محرفة عن « الإدب » ( الاستدراك ص ٥١١ ) ، ويبدو لي أن الكلمة هي كما ذكرها أولاً في النص ، لأن وجع العنق يمكن أن يستعار للعجب فضلاً عن قصد أبي الفتح في المقارنة بين راء هتر ولام إدل ، ثم إن الإدب ليس من معناه العجب على ما تدلنا المعاجم .

شَحَط ؛ وذلك أن الشيء إذا تجعّد وتقبّض عن غيره شحط وبعد عنه ، ومنه قول الأعشى :

إذا نزل الحيُّ حلَّ الجحِيشُ شقياً غَوِياً مبيناً غيورا [1]

وذاك من تركيب ( ج ع د ) وهذا من تركيب ( ش ح ط ) فالجيم أخت الشين [2] ، والعين أخت الحاء، والدال أخت الطاء [3] . وقالوا : السيف والصوب ، وذلك أن السيف يوصف بأنه يَرْسُب في الضريبة لحدّته ومضائه ، ولذلك قالوا : سيف رَسُوب ، وهذا هو معنى صاب يصوب إذا انحدر . فذاك من ( س ي ف ) وهذا من ( ص و ب ) فالسين أخت الصاد ، والياء أخت الواو ، والفاء أخت الباء . وقالوا: جاع يجوع ، وشاء يشاء ، والجائع مريد للطعام لا محالة ، ولهذا يقول المدعوّ إلى الطعام إذا لم يجب : لا أريد ، ولست أشتهي ، ونحو ذلك ، والإرادة هي المشيئة . فذاك من ( ج و ع ) وهذا من ( ش ي أ ) والجيم أخت الشين ، والواو أخت الياء [4] ، والعين أخت الهمزة . وقالوا :

---

(١) الجحيش : الزوج الذي يعتزل بامرأته بعيداً عن الناس يصف رجلاً غيوراً على امرأته إذا نزل بين ناس أو نزل ناس به اعتزل بامرأته بعيداً عنهم.

(٢) الجيم صامت مجهور لثوي – حنكي انفجاري – احتكاكي ، والشين صامت مهموس لثوي – حنكي احتكاكي .

(٣) الدال صامت مجهور سني انفجاري ، والطاء صامت مهموس سني مطبق انفجاري .

(٤) الواو : شبه صائت مجهور شفوي حنكي قصي . والياء شبه صائت مجهور حنكي – وسيط .

فلان حِلْس بَيْته إذا لازمه . وقالوا : أَرَز إلى الشيء إذا اجتمع نحوه وتقبّض إليه ، ومنه : إن الإسلام ليأرِز إلى المدينة ، وقال :

بآرِزةِ الفَقَارةِ لم يَخُنْها قِطاف في الركاب ولا خِلاء[1]

فذاك من ( ح ل س ) وهذا من ( أرز ) فالحاء أخت الهمزة ، واللام أخت الراء ، والسين أخت الزاي . وقالوا : أفل ، كما قالوا : غبر ، لأن أفل : غاب ، والغابر غائب أيضاً . فذاك من ( أ ف ل ) وهذا من ( غ ب ر ) فالهمزة أخت الغين ، والفاء أخت الباء ، واللام أخت الراء .

وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفَرْش اللغة ، وإنما بقي مَنْ يثيره ويبحث عن مكنونه ، بل مَنْ إذا أُوضح له وكُشِفت عنده حقيقته طاع طبعُه لها فوعاها وتقبلها . وهيهات ذلك مطلباً ، وعزّ فيهم مذهباً ! وقد قال أبو بكر : من عرف أَلِف ، ومن جهل استوحش . ونحن نتبع هذا الباب باباً أغرب منه ، وأدل على حكمة القديم سبحانه ، وتقدست أسماؤه ، فتأمّله تَحْظَ به بعون الله تعالى .

---

(١) آرزة الفقارة : الناقة القوية ، لأن فقارها قد اجتمعت وتضامت . لم يخنها : أي لم ينقصها ، والقطاف : مقاربة الخطو ، والخلاء في الإبل مثل الحران في الدواب .

# المبحث الخامس
# عبقرية اللغة العربية

لقد تكلّم العرب وفق السليقة التي وهبهم الله، من قبل أن يُخلق النحو، فجاؤوا بالعجيب من القول، حُسنَ سبك، وخفةً على اللسان، وعذوبةً في السمع، وتأديةً للمعاني الكثيرة بالكلام القليل، وتباينت حظوظُ الناس من تلك الفصاحة والبلاغة، ما بين حَسَنٍ وأَحسن، وفصيح وأفصح، كلٌّ حسب البيئة التي نشأ فيها، والقبائل التي احتك بِها، ثم جاء النحاة ونظروا في كلام العرب، وأعملوا فيه مباضعَهم وأدواتِهم، فاستنبطوا ما بات يعرف بقواعد النحو، كما نظر الخليل في شعر الشعراء واستنبط منه بحور الشعر، وكما نظر علماء التجويد في قراءة القارئين واستنبطوا منها أحكام التلاوة، وإلا فما حاجة صاحب الذوق والسليقة الصحيحة أن يقال له: إن الفاعلَ مرفوعٌ والمفعولَ به منصوب؟ أَوَ تُراه قائلاً: ما حَيِيَ غيرَ ذلك؟ أم تراه يصرفُ ما حقُّه المنع من الصرف، فيقال له: إنه ممنوع من الصرف؟ إنه يتبع سليقته وما أخذه عن أمِّه وأبيه، فلا يصرف ما لم تصرفه العرب، ليس لعلل النحاة، ولكن لأن صرفه ثقيلٌ ممجوج، لا تسمحُ به قريحة جيدة ولا يرضاه ذوق عال

وطُوِيتْ أيامٌ ونُشِرَتْ أيام، وفشا اللحن، ولم تعد السليقة صافية كما كانت، ومن عكف على العربية وتذوقها وخبر دواخلها وخوارجها، عرف فضل العرب السابقين، واعترف أمامهم بالقصور، فِعْلَ المفسر الكبير الإمام ابن عطية الأندلسي، صاحب تفسير المحرر الوجيز، وناهيك به، إذ يعترف للعرب الأولين بتفوقهم ذوقًا وجودة قريحة وميزًا للكلام، ويقر بقصوره بالنسبة إليهم، فيقول في وصف القرآن الكريم: "وكتاب الله لو نُزِعت منه لفظةٌ ثم أُدير لسان العرب في أن يوجدَ أحسنُ منها لم يوجد! ونحن تبينُ لنا البراعةُ في أكثره، ويخفى علينا وجهُها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة ومَيْزِ الكلام "!

ولمعتذر أن يعتذر اليوم ببعدنا حتى عن زمن ابن عطية، ومجافاتنا للغة الصافية التي لم تكدرها الدلاء، وأننا لسنا كذاك الأعرابي الذي لم يكن يسمع من حوله إلا عربية خالصة، لا تشوبُها شائبة ولا يعتريها لحن، ولئن ساغ لنا أن نقبل عذر ذاك المعتذر، إنه لا يجوز لنا أن نركن إلى هذا الخمول والتراجع، حتى في زمن ما بعد النهضة، ولكن أن نعيد النظر في هذه القضية الخطيرة، ونقلبها على وجوهها، وأن يدلي فيها أصحاب الرأي والفكر بدلائهم، حتى نصل فيها إلى ما يمكن أن يطمئن إليه القلب، ويرتاح به الضمير .

وبدأة ذي بدء، أحب أن أقرر أن العربية ليست بدعًا من اللغات، وليست هي أصعبها، ولا أكثرها تعقيدًا، وإعادة إحيائها في كلام الناس ليست أمرًا ممتنعًا ولا مستحيلاً، ولا سيما أن اللغة العامة في الأقطار العربية لم تبعد عن الفصيح بما تصير به لغة مستقلة، وأكثر ألفاظها فصيحة الأصل، ودعوى أن الإنجليزية أو الفرنسية أسهل من العربية غيرُ مُسَلَّمة، بَلْهَ الصينيةَ وما شاكلها، والألمانيةَ وما والاها، ومع ذلك فأهل كل لغة من هذه اللغات يتعلمونَها ويتقنونَها ويحسنون التحدث بِها، وإن لم يكونوا من المختصين، وأننا عندما نتكلم عن العربية فنحن لا نتكلم عن النحو والصرف، فالعربية ليست مقصورة على النحو والصرف، أو ما كان يعرف بعلوم الآلة، على أهمية هذه العلوم، وإنما آفاقها من ذلك أرحب، ومجالاتُها لا شكّ أوسع، فبلسان العرب كتب ابنُ سينا شفاءه وقانونه، والبيرونيُّ تحقيقَه واستيعابَه، والرازي حاويَه وشكوكَه، وابنُ عربي فتوحاتِه وفصوصَه، ونقل حُنينٌ من العلوم ما نقل، في الطب والفلسفة، والمنطق والطبيعة، والدين والأخلاق، وسائر المعارف والعلوم والفنون .

**من مظاهر عبقرية اللغة العربية:**

كثيرة هي المظاهر الدالة على عبقرية اللغة العربية؛ **فالقواعد الكثيرة المتشعبة ما هي إلا وصف أمين لعبقرية العربية**، ومبلغ العرب من الذوق والبراعة والجري وراء طلب الخفة في كل ما قالوه وفاهوا به، ولا حاجة للناس بها إن هم عرفوا الصواب، وسبيل ذلك أن يعالج الذوق العام، وأن تقوم السليقة الجماعية، بأن يطرق الصوابُ أسماعَ الناس في كل وقت وحين، وأن يرَوا الكلام في الكتب مشكولاً شكلاً صحيحًا، لا أن نلجأ إلى القواعد التي لا تنتهي: قلت مرّةً لصديق لي من علماء الندوة بالهند إني أعجب من الناس كيف يعدلون عن صواب خفيف إلى خطأ ثقيل، كعدولهم عن لفظة "الكيّ"، في قولهم "كيّ الثياب"، إلى لفظة "الكَوي"، فأجاب بأن ثقل لفظة "الكوي" أخفُّ من تعلُّم القاعدة الصرفية التي جعلت "الكيَّ" كيًّا !أنا لا يعنيني أن يعرفَ غيرُ المختصِّ كيف صار الكيُّ كيًّا، ولا أن يحذقَ قواعد الإعلال والإبدال، وإنما أن يعرف الكلمة الصحيحة، ويشعر وهو ينطقها أنّها أخف على اللسان وأوقع في الآذان .

ثَمَّةَ قواعدُ ما انفكَّ الطلبة يستصعبونها، كقواعد الممنوع من الصرف مثلاً، فقد منعت العرب من الصرف أسماء بعينها، ثم جاء النحاة وبوّبوا للمواضع التي منعت من الصرف ونصّوا على علل منعها، وسَمَّوا أسماء كثيرة، ولكنك إن تأملت تلك المواضع بعيدًا عن علل

النحويين، أدركت أن باب المنع من الصرف مجلى لبراعة العربية وعبقريتها، وعلمت أن العلة في الحقيقة واحدة، هي طلب الخفة والفرار من الثقل، اقرأ إن شئت قوله تعالى: "لهدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله" وجرِّبْ أن تبدل بضمة صوامع أو مساجد تنوينًا، ثم انظر كيف تكون ثقيلة في النطق ممجوجة في السمع. ولو تأملت الحالتين اللتين صرفت فيهما العرب ما حقه المنع من الصرف تعجبت من لطيف حسهم، وحسن ذوقهم، فقد صرفوا ما حقه المنع من الصرف إذا أضيف أو عُرِّف بأل، وفي كلا الحالتين يزول الثقل الداعي إلى المنع من الصرف، فسبحان من ألهمهم هذا وأنطقهم به .

وفي العربية **ألفاظ كثيرة** حدّثنا عنها علماء الصرف، كيف صارت إلى صورتِها التي نعرفها بِها، وهي صورة سهلة سلسة، منها في القرآن الكريم الكثير، ونحن لا حاجة بنا إلى معرفة كثير مما قالوه إن لم نكن من المختصين، ولكن أحببنا أن نري الذين يحبون العربية كم هي طالبة للتخفيف، طاردة للتثقيل، قارن إن شئت بين كلمة مجرَيَها ومجراها، وانظر كم خفت الكلمة عندما قلبنا ياءها المفتوحة ألِفًا !

ولو قلّبت الكتب المؤلفة في الصرف وتأملت أبوابَها من مثل التصغير والتكسير والنقص والقلب والنقل والاشتقاق بفرعيه، والإعلال والإبدال، لوقفت من العرب على ما لا ينقضي منه العجب، مما حيّر العلماء بعدُ في تتبعه واستقصائه وتبويبه، وكله يرجع إلى القاعدة الكبرى وهي طلب الخفة والفرار من الثقل، وكأني بأبي الطيب حكى حال العرب مع النحاة وعلماء اللغة في بيته المشهور :

**أنامُ مِلْءَ جُفوني عَنْ شوارِدِها ويسهرُ الخلقُ جراها ويختصمُ**

وكلمة أنا إذا وليها حرف متحرك أسقطت العرب ألفها، واكتفت بفتحة النون القصيرة، ولو أثبتتها لكانت ثقيلة، وقد أثبتتها بعض القبائل فلم تحظ لهجتها بالذيوع، بل أهملت وعُدّت في عداد الشاذّ والقليل، وإن وقعت في بعض قراءات القرآن التي فيها الفصيح والأفصح وما دون ذلك .

ومن عبقرية اللغة العربية: **الاختصار**، ومنه باب النحت، وهو بناء كلمة جديدة من الجمع بين كلمتين، ويشتق منها فعل من جنسها، كقولهم حيعل، من حيَّ على، وكبّر، أي قال الله أكبر، وأمثلته كثيرة، يراها الراغب في كتب فقه اللغة وعلومها، كفقه اللغة للثعالبي

والخصائص والمزهر. ولم تترك العرب شيئا من هذا الباب إلا وضعت له لفظًا يدل عليه اختصارًا، ودونك الهيللة والحوقلة والحمدلة والبسملة والجعفدة والسبحلة والحسبلة والمشألة والسمعلة والطبقلة والدمعزة، بل لقد قال ابن جني في هذا وأضرابه إن الاشتقاق من الأصوات باب يطول استقصاؤه. وقد وجدتني أنحت مصطلحات جديدة بينما كنت أنقل إلى العربية بعض الكتب المؤلفة باللغة الإنجليزية، فكان من ذلك: العِرْقومية، والعردينية، والرمزَعرقية، والنفسياسة أو النفطياسة، وهي أوصاف تصدق على كثير مما يواجه العالم من نزاعات في حقبتنا هذه، فالعرقومية منحوتة من العرقية والقومية، وكذلك العردينية من العرقية والدينية، أي النزاعات المشتملة على ذين البُعدين معًا .

ثم انظر إلى **أبنية الأفعال** عند العرب ومعانيها تَرَ عجبًا، فوزن فعّل مشدد العين مثلاً يفيد النقل، كفرّحتُه، أي نقلت إليه الفرح؛ والتكثير كقطّعته؛ والجعل على صفة كفطّرته؛ والتسمية، كخطّأته وفسّقته وكفرته، أي سميته مخطئًا أو فاسقًا او كافرًا، والدعاء للشيء، كسقّيته؛ أو عليه، كعقرّته؛ والقيام على الشيء، كمرّضته؛ والإزالة كقذّيتُ عينه، أي أزلت قذاها؛ والرمي بالشيء، كجبّنته، أي رميته بالجبن .

وإن شئت ألا ينقضي عجبك فانظر من العربية إلى **باب الإدغام** وما فيه من أقسام يعرف بعضها من لهم صلة بعلم القراءات وفنّ التجويد، وهو باب واسع يجعل المرء يقف إجلالاً أمام عبقرية هذه اللغة في التخفيف على الناطقين بِها .أدغمت في مواضع وفكّت في أخرى، ولو جعلت هذه مكان تلك أو عكست وقفت على مبلغ العرب في تذوق الكلام والسعي للخفة في كل ما فاهوا به. ورحم الله الإمام حمزة بن حبيب الزيّات في اختياراته اللطيفة في هذا الباب، والإمام السوسي قطب باب الإدغام، كما سمّاه الإمام الشاطبيّ في لاميته العظيمة المشهورة بالشاطبية.

ولا تفوتنك في هذا السياق تلك المنادح الواسعة من **التقديم والتأخير، والحذف والتقدير، والإضمار والفصل، والاتساع والحمل، والتضمين والجوار، والاستغناء ورعاية الظاهر واعتبار المحل، ومعاني الحروف والأدوات ووقوع بعضها موقع بعض، وتبادل وظائف الأبنية، ثم لغة الشعر التي يسمونَها الضرائر**، وكلُّها ظواهرُ تَدُلُّ على عِظَمِ العربية وعُلُوِّ كَعْبِ أهلِها في كمال الذوق وجودة السليقة .

أَلَمْ تَرَ إلى العربِ كيفَ بالغت في طلب الخِفَّةِ حتى حذفت كلَّ ما لا حاجة إليه في جلاء المعنى واستغنت عنه، فقالت امرأةٌ طاهرٌ من الحيض، لأنَّ الرجلَ لا يشركها في الحيض، وطاهرةٌ من العيوب لأنه يشركها في ذلك، وكذلك قاعدٌ من الحبل، وقاعدةٌ من القعود، ومثله حاملٌ وحاملة؟ وكلُّ ما استقلت به المرأة عن الرجل سقطت من آخره التاء التي يجاء بِها للتأنيث .

وفي الهمز وأحواله دلائلُ باهرة على مبلغ العرب في طلب الخفة، فالهمز ثقيل، والعرب تصرفت فيه ما لم تتصرف في سواه من الحروف، فجاءت به على سبعة أوجه مستعملة في القرآن؛ جاءت بها محققًا، ومخففًا، ومبدلاً بغيره، وملقًى حركته على ما قبله، ومحذوفًا، ومثبتًا، ومسهلاً بين حركته والحرف الذي منه حركته .وهم في ذلك كله إنما كانوا يسعون لطلب الخفة، فإن حققوا فللخفة، وإن سهلوا فللخفة، يحدوهم الذوق وتسندهم الرواية .

من العرب من كان لسانه يطوع بنطق الهمزتين متتاليتين محققتين، فنطق بِهما كذلك، وجاءتنا بِهذا الروايةُ القرآنية عن عاصم برواية حفص، وهي الرواية التي كتب لها من الذيوع والانتشار ما لم يكتب لسواها، ومنهم من كان يستثقل هذا فجنح إلى التخفيف، وبالتخفيف جاءت روايات أخرى كثيرة. كان نافع، وهو قارئ الدينة يقرأ بتخفيف الهمز في مواضع كثيرة، وقد روى عنه تلميذه النجيب الملقب بورش المصري، إبدال الهمز الساكن هروبًا من ثقله، فإن رأى الهمز أخفَّ من الإبدال همز، كما وقع في باب الإيواء، وقد أفردنا مسألة الهمز ببحث طويل، فليرجع الراغب إليه، ففيه فوائد كثيرة.

## المبحث السادس
## الفصحى والعامية

«لقد خاضت الثقافة العربيّة معركة العصور وخرجت
منها ظافرة بفضل اللغة الفصحى».
جاك برك

## ١ - تعريف الفصحى والعامية وازدواجية اللغة وثنائية اللغة

اللغة الفصحى هي لغة القرآن الكريم والتراث العربي جملة، والتي تستخدم اليوم في المعاملات الرسمية، وفي تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري عامّة. أما العاميّة، فهي التي تستخدم في الشؤون العاديّة، والتي يجري بها الحديث اليومي. ويتّخذ مصطلح «العاميّة» أسماء عدّة عند بعض اللغويين المحدثين كـ «اللغة العامية»[١] و«الشكل اللغوي الدارج»[٢]، و«اللهجة الشائعة»[٣] و«اللغة المحكية»[٤] و«اللهجة العربية

(١) ورد هذا المصطلح عند كثيرين. انظر مثلاً:
مارون غصن: حياة اللغات وموتها - اللغة العامية. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٢٥ ص ٨. وفؤاد البستاني: الروائع، العدد ٤١. ط ٢. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٥٦ ص ٥٢.

(٢) ورد المصطلح عند عبد الله العلايلي: معجم المعجم. ط ٢. دار المعجم العربي. بيروت ١٩٥٤ ص ٤.

(٣) ورد المصطلح عند الأب لويس شيخو في مقاله: «حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة» مجلة المشرق، ج ٢٣، العدد ٣، بيروت (آذار، ١٩٢٥) ص ١٦٢.

(٤) ورد المصطلح عند أسعد داغر في مقال له بعنوان: «اللغة المكتوبة واللغة المحكية» المقتطف ج ٢٧ العدد ٣. القاهرة (آذار ١٩٠٢) ص ٢٥٧.

العامية »[٥]، و « اللهجة الدارجة »[٦]، و « اللهجة العامية »[٧]، والعربية العامية »[٨]، و « اللغة الدارجة »[٩]، و « الكلام الدارج »[١٠]، و « الكلام العامي »[١١]، و « لغة الشعب »[١٢] الخ.

ويقصد بـ « ازدواجية اللغة » Le Bilinguisme وجود لغتين مختلفتين، عند فرد ما، أو جماعة ما، في آن واحد[١٣]. ومن دون الدخول في بحث المعايير التي بوساطتها نستطيع أن نؤكّد أو ننفي وجود الازدواجية بين لغتين معيّنتين[١٤]، فإن بعض الباحثين يرفضون استعمال مصطلح « الازدواجية »، الذي يستعمله كثير من اللغويين[١٥]، للدلالة على شكلي

---

(٥) ورد المصطلح عند عيسى اسكندر المعلوف في مقاله: « اللهجات العامية في لبنان وسورية » مجلة المجمع اللغوي في القاهرة، العدد ٤، القاهرة (تشرين الأول، ١٩٣٧) ص ٢٩٩.

(٦) ورد المصطلح عند لويس شيخو في مقاله: « الوسائل لترقية اللغة العربية » مجلة المشرق، ج ٢٠، العدد ١٢، بيروت (كانون الأول، ١٩٢٢) ص ١٠٤٧.

(٧) ورد المصطلح عند لويس شيخو في مقاله: « حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة ». مجلة الشرق ص ١٦٥.

(٨) ورد المصطلح عند رشيد عطية في كتابه: معجم عطية في العامي والدخيل، دار الطباعة والنشر العربية. سان باولو. ١٩٤٤. ص ١٢.

(٩) ورد المصطلح عند لويس شيخو في مقاله: « اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة » مجلة المشرق ص ١٦٥.

(١٠) انظر المرجع نفسه ص ١٦١.

(١١) ورد المصطلح عند شكيب أرسلان في مقاله: « علاقة التاريخ باللهجات العربية » مجلة المقتطف، ج ٨٠ العدد ٣، القاهرة (آذار ١٩٢٣) ص ٣٢٥.

(١٢) ورد المصطلح عند مارون غصن في كتابه: حياة اللغات وموتها – اللغة العامية ص ١٠.

(١٣) Jean Dubois et autres: Dictionnaire de linguistique p 65

(١٤) يُرْجِع بعضهم هذه المعايير إلى ثلاثة: لغوي ونفسي واجتماعي. انظر في الصدد هذا: Sélim Abou: Le bilinguisme arabe français au Liban. P.U.F. Paris. 1962 pp 3-7.

(١٥) انظر مثلاً أنيس فريحة: نحو عربية ميسّرة. ص ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٧ وغيرها. وكمال الحاج: في فلسفة اللغة ص ٢٢٢.

أما ثنائية الفصحى والعامية التي نعنيها في هذا البحث، فيُرَجَّح أنها نشأت منذ نشوء العامية نفسها، أي في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى، بعد اختلاط العرب بالأعاجم[٢١]. لكنّ هذه العامية، لم تتميّز عن الفصحى بشكلها الواضح، إلا بعد فترة من الزمن استطاعت خلالها أن تتّسم ببعض السمات في المادة الصوتية، وصوغ القوالب، وتركيب الجمل، والقواعد النحوية، والمادة اللغوية، وطرائق التعبير[٢٢]. وقد أشار الجاحظ إلى هذه العاميّة عندما تكلّم على لغة المولّدين والبلديين[٢٣].

ومن الجدير بالذكر أن ثنائية الفصحى والعامية، ليست وقفاً على المجتمع العربي، وإنّما تتجاوز هذا المجتمع إلى مجتمعات أخرى كثيرة[٢٤]. ولقد أشار بعض المشتغلين بالدراسات اللغوية، إلى وجود هذه الظاهرة في اللغات الأجنبية[٢٥]. وقد كان من حظّ الفرنسية أن خصَّها بعضهم بكتاب مستقل اقتصر فيه على دراسة الثنائية فيها[٢٦]. ولكمال الحاج في الصدد هذا رأي يذهب فيه إلى أنّ ثنائية اللغة امتداد لازدواجية العقل والحسّ في الإنسان، وهذا يعني عنده أن هذه الثنائية «ليست وقفاً على العربية وحدها، ففي كل لغة لسان عامي ولسان فصيح»[٢٧] لكن «هذه الثنائية

---

(٢١) Johann Fuck: Arabiya; recherches sur l'histoire de la langue et du style arabe. Didier. Paris. 1955. p 11 et p 87.

(٢٢) المرجع نفسه ص ٨٨ – ٨٩.

(٢٣) الجاحظ: البيان والتبيين. ج ١ ص ١٥٩.

(٢٤) Jean Dubois: Dictionnaire de linguistique p. 65.

(٢٥) انظر علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٥٤ – ١٥٥ وجبر ضومط: العامية والفصحى في لغات أوروبة، مجلة السيدات والرجال، ج ٦، ص ٤٤٩.

(٢٦) Henri Bauche: Le langage populaire. Paris. 1951.

(٢٧) كمال الحاج: في فلسفة اللغة. ص ٢٢٢.

على درجات، إذ تختلف شدّة، من لغة إلى لغة. المهم أنها كائنة في كل لغة لا محالة »[٤٢].

## ٤ - الدعوة إلى العامية

ظهرت الدعوة إلى العامية في السنة ١٨٨٠[٤٣]، على يد الألماني ولهلم سبيتا (Dr. Wilhelm Spitta)[٤٣]، مدير دار الكتب المصرية يومذاك، في كتاب له بعنوان « قواعد العربية العامية في مصر »، لكنّ نشر دعوته باللغة الألمانية، أبعدها عن التأثير في المجال الفكري العربي[٤٤].

في السنة ١٨٨١، اقترحت مجلة « المقتطف » كتابة العلوم باللغة التي يتكلّمها الناس في حياتهم العامّة، مدّعية أن الخلاف بين لغة النطق ولغة الكتابة عندنا، هو علّة تأخّرنا، ثمّ دعت رجال الفكر إلى بحث اقتراحها ومناقشته[٤٥]، فلبّى طلبها كثيرون[٤٦].

---

(٤٢) إن الاهتمام بالعامية بدأ منذ القرن الثاني للهجرة. فقد وضع الباحثون العرب القدامى كتباً عدة في مسألة العامية، منها كتاب لحن العامة لأبي الحسن حمزة الكسائي المتوفّى في السنة ١٩١ هـ، وكتاب لحن العامّة لأبي عبيدة المتوفّى في السنة ٢٠٩ هـ، وكتاب لحن الخاصّة لأبي هلال العسكري المتوفّى في السنة ٣٩٥ هـ... الخ (انظر عيسى اسكندر المعلوف: « اللهجة العربية العامية »، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج ١، ص ٣٥٣ - ٣٦٨ و ج ٣ ص ٣٤٩ - ٣٥٦) لكن دراستهم للعامية لم تقصد الدعوة إليها، بل جاءت لتحفظ الفصحى من التحريف واللحن والدخيل، عن طريق تقويم ألسنة العامة وتصحيح أخطائهم.

(٤٣) متخصّص باللغات الشرقية (١٨٥٣ - ١٨٨٣). نال شهادة الدكتوراه من جامعة ليبزيغ في « تاريخ أبي الحسن الأشعري ومذهبه ». له « تاريخ أبي الحسن الأشعري ومذهبه »، و« فهرس المخطوطات العربية في دار الكتب المصرية »، و« قواعد اللهجة العربية العامية بمصر » (نجيب العقيقي: المستشرقون ج ٢ ص ٧٠٥).

(٤٤) عائشة عبد الرحمن: لغتنا والحياة. دار المعارف، القاهرة ١٩٧١ ص ١٠٠.

(٤٥) مجلة المقتطف: « اللغة العربية والنجاح »، القاهرة، (تشرين الثاني، ١٨٨١) ص ٣٥٢ - ٣٥٤.

(٤٦) منهم من عارض دعوتها كالشيخ خليل اليازجي، ومنهم من أيدها كأسعد داغر وكاتب آخر سمّى نفسه « الممكن ». انظر على التوالي:

- خليل اليازجي: « اللغة العربية والنجاح »، مجلة المقتطف، ج ٦، العدد ٧ القاهرة (كانون الأول، ١٨٨١) ص ٤٠٤.

وفي السنة ١٨٩٣، ألقى وليم ولكوكس (William Willcoks)، وهو مهندس ريّ إنكليزي، محاضرة في نادي الأزبكية في مصر بعنوان «لِمَ لَمْ توجد قوّة الاختراع لدى المصريين الآن»، عزا فيها، سبب عدم وجود هذه القوّة، إلى استخدام المصريين اللغة العربية الفصحى في الكتابة والقراءة، فنصح بنبذ هذه اللغة لصعوبتها وجودها، وباستخدام اللغة العامية في الكتابة الأدبية[٤٧].

وفي السنة ١٩٠١ وضع سلدن ولمور (J. Seldon Wilmore) القاضي الإنكليزي في مصر، كتاباً في الإنكليزية عن العامية المصرية بعنوان «العربية المحكيّة في مصر»، دعا فيه إلى الاقتصار على العامية أداة للكتابة والحديث[٤٨].

في السنة ١٩٠٢ كتب اسكندر المعلوف[٤٩]، إلى مجلة «الهلال» يقول: إنّه اشتغل بالعامية كثيراً، حتى انتهى إلى الإيمان بصحّتها، ووجوب

---

- أسعد داغر: «استحالة المكن إذا أمكن»، مجلة المقتطف، ج ٦، العدد ٩، القاهرة (شباط، ١٨٨٢) ص ٥٥٦.

- «الممكن»: «مستقبل اللغة العربية»، مجلة المقتطف، ج ٦، العدد ٨، القاهرة (كانون الثاني، ١٨٨٢) ص ٤٩٤.

(٤٧) انظر نص المحاضرة في مجلة الأزهر، العدد الأول من السنة السادسة، القاهرة، ١٨٩٣، ص ١ - ١٠.

(٤٨) عن نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر. ط ١. دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٦٤. ص ١٠٩.

(٤٩) علم لبناني (١٨٤٩ - ١٩٠١)، ولد في كفرعقاب (لبنان)، درس في مدرسة مار الياس الأرثوذكسية في شويا (لبنان)، وعلى بعض فقهاء دمشق. كان محامياً أيام عهد المتصرفية. (عيسى اسكندر المعلوف: دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف. المطبعة العثمانية، بعبدا (لبنان). ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ص ٣١٠ - ٣١١).

تدعيمها وإقرارها. وأمل أن يرى الصحف العربية وقد غيَّرت لغتها، وبالأخصّ مجلة «الهلال»[٥٠].

في السنة ١٩١٣، كتب أحمد لطفي السيد[٥١] في موضوع تصير اللغة العربية، سبع مقالات نشرها في صحيفة الجريدة[٥٢]، ذهب فيها إلى أنّ الطريقة الوحيدة لإحياء اللغة العربية، هي إحياء لغة الرأي العام من ناحية، وإرضاء لغة القرآن من ناحية أخرى، وذلك باستعمال العامية في الكتابة[٥٣].

في السنة ١٩٢٥، أصدر الأب مارون غصن[٥٤]، كتاباً سمّاه «درس ومطالعة»[٥٥]، متنبِّئاً في أحد فصوله: «حياة اللغة وموتها – اللغةبالعامية» (ص ١٨٥)، بموت العربية الفصحى، قياساً على ما عرفه من تاريخ اللغتين: اليونانية واللاتينية، وداعياً إلى الكتابة بالعامِّيّة السورية.

في السنة ١٩٥٥ أصدر أنيس فريحة كتابه «نحو عربيّة ميسَّرة» دعا فيه إلى «أن يصبح لنا لغة واحدة هي لغة الحياة»[٥٦]، معتبراً أن الفصحى

(٥٠) اسكندر المعلوف: «اللغة الفصحى واللغة العامية» ص ٣٧٣ – ٣٧٧.

(٥١) هو سياسي مصري (١٨٧٢ – ١٩٦٣)، تولى وزارة الخارجية في السنة ١٩٤٦، وأحد رؤساء مجمع اللغة العربية. له «قصة حياتي». (فرديناند توتل: المنجد في الأعلام، ص ٣٧٥ – ٣٧٦).

(٥٢) نشرت هذه المقالات في الأعداد: ٦، ٢٠، ٢٣، ٢٧، ٣٠ من نيسان و ١، ٤ من أيار من السنة ١٩١٣.

(٥٣) وقد كان لهذه الدعوة الجديدة، صدى كبير في الأوساط المصرية، فانقسم الناس حولها بين مؤيد ومعارض. (انظر نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر، ص ١٣٦ – ١٤٣).

(٥٤) كاهن وأديب لبناني (١٨٨١ – ١٩٤٠). له «حياة اللغات وموتها» و«درس ومطالعة» و«محاضرات في الزواج» (يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية. ج ٣ ص ٩٢٣ – ٩٢٥).

(٥٥) صدر في بيروت عن المطبعة الكاثوليكية في السنة ١٩٢٥.

(٥٦) أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة ص ١٥٠. إن أنيس فريحة يدعو، في الظاهر، إلى ما يسمِّيه «اللهجة العربية المحكية المشتركة»، وهو مقتنع بضرورة تبني العامية، إذ يدرك أن اللغة =

«لغة أجيال مضى عهدها»، وهي بالتالي عاجزة عن أن تعبّر عن الحياة. أمّا العاميّة فلغة حيّة متطوّرة نامية تتميّز بصفات تجعل منها أداة طيّعة للفهم والإفهام، وللتعبير عن دواخل النفس[٥٧].

هذه هي أبرز الدعوات إلى العامية. أما الأسس التي استند إليها أصحابها فتتلخّص بما يلي:

١ – إنّ الفصحى «لغة أجيال مضى عهدها»[٥٨] تعجز عن أن تعبّر عن الحياة، وهي، بالتالي، صعبة التعلّم والتعليم لصعوبة نحوها، وصرفها، ومفرداتها، بخلاف العامية التي هي لغة سهلة، تسيل على الألسن بلا عسر ولا تصنّع، وذلك لخلوّها من الإعراب، ومن الألفاظ الحوشية والوحشية المائتة، ومن المترادفات والأضداد الكثيرة، ولمرونتها في قبول الأوضاع الأجنبية بلفظها العجمي، وليلها أخيراً إلى إطلاق القياس في الاشتقاق للنموّ والتوسّع[٥٩].

٢ – إن ثمّة مسلمين كثيرين، لا يتوسّلون العربية أداة للتعبير نطقاً أو كتابة، ومن ثمّ، لا مسوّغ لتعلّق المسلمين بها. أما لغة القرآن فتبقى من

---

= تقرن أبداً بالدين والأدب، فهي فكر الأمة وروحها» وأن العالم العربي «ليس في حالة فكرية يستطيع معها تقبّل أي اقتراح يرمي إلى المساس باللغة العربية». (نحو عربية ميسرة ص ١٨٢)، وعليه فإنه يرى في الدعوة إلى «اللهجة العربية المحكية المشتركة» حلاً ممكناً يقضي على مساوىء الثنائية اللغوية، دون أن يمس الوحدة اللغوية بين الأقطار العربية، ويشكل في الوقت نفسه، مرحلة تستطيع بوساطتها الانتقال إلى تبني العاميات المعروفة في البلدان العربية. (لمزيد من التفصيل انظر أطروحتنا: آراء أنيس فريحة في تبسيط اللغة العربية وأساليب تدريسها، ص ١٢٦ – ١٢٧ وص ١٠٨ – ١١٣).

(٥٧) أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة ص ١١٧.

(٥٨) المرجع نفسه ص ١٦٦.

(٥٩) المرجع نفسه ص ١١٧. وجورج الكفوري: اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. مطابع نصار. بيروت. ١٩٤٨ ص ٨٥.

اختصاص رجال الدين والاختصاصيّين اللغويين[٦٠].

٣ – إنّ في اعتماد العامية اقتصاداً لوقت طويل وثمين يهدر في تعلّم الفصحى وأحكامها[٦١].

٤ – إن من أهمّ أسباب التخلّف عندنا اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة. وعليه، فاعتماد العامية كفيل بالقضاء على هذا التخلّف، وعلى

## ٨ – مناقشة الدعوة إلى العامية

إن كون العامية أسهل من الفصحى، أمر واضح لا يحتاج إلى برهان يثبته، ذلك أن الفصحى، في جميع لغات العالم، تقف عند مرحلة معيّنة من

التطور اللغوي، ثم تتقيَّد بقواعد تلك المرحلة وأحكامها، بخلاف العامية التي لا تنفك تتطوّر على ألسنة الناس، حتى تبلغ أقصى درجات السهولة والمرونة. فالناس، في محادثاتهم اليومية، ينزعون غالباً إلى الاقتصاد، وإلى التخلّص من قيود الفصحى، في مختلف مستويات اللغة. ولعلّ من أهم دلائل سهولة العامية، تخلّصها من الإعراب، واكتفاءها باسم موصول واحد هو «اللي»[٨٤]، مقابل أسماء موصولة عدّة في الفصحى، ينتظمها جدول طويل، تتوزّع فيه زُمَراً تبعاً للعدد والجنس.

أما الدعوة إلى العامية، فإذا بحثناها من زاوية علمية سكونية محض، أي إذا عزلناها تماماً عمّا يلازمها ويرتبط بها من مختلف القضايا الاجتماعية والفكرية، وحصرناها في إطار النظر العقلي والعلمي المجرد، ولم نبحثها من وجهة نظر جدلية منفتحة تأخذ بعين الاعتبار جميع العلائق والارتباطات الدينامية القائمة فعلاً بين اللغة وسائر البنيات الإيديولوجية والحياتية في داخل المجتمع وخارجه، لن نلقى في معظم الحجج والبراهين التي يقدّمها أنصار العامية، ما يخالف المنطق أو الصواب. فالقول بأن الثنائية بلغت مستوى الذروة، لأن الفصحى قد هجرت الأفواه، قول لا يمكن أن ينكره كل ذي حسّ لغوي سليم. والقول كذلك بأن لغة الفم هي لغة الحياة وهي ذروة التطور الذي بلغته الفصحى من خلال ممارستها العملية الحيَّة، ومن خلال التفاعل الذي كان لها مع مختلف المؤثّرات، قول مستند إلى حقيقة التطوّر، وحقيقة المعطيات الواقعية والعلمية. والقول بأن للثنائية، في حدود هذا البعد الشاسع بين اللسانين، تأثيراً سلبياً أكيداً في صفاء النمو العقلي، وصلابة الشخصية وتماسكها عند جيل المتعلّمين الصغار، قول لا يمكن أن تنكره أبسط مبادىء التربية وعلم النفس.

---

(٨٤) إن هذا الاسم يلازم شكلاً واحداً في جميع التراكيب في العامية، فتقول: «الولد اللي راح»، و«الأولاد اللي راحوا»، و«البنات اللي راحت»...الخ.

أما إذا بحثنا مسألة الدعوة إلى العامية، من زاوية ارتباطاتها الدينامية القائمة بين اللغة وسائر البنيات الإيديولوجية والحياتية، وهذا هو البحث الصحيح لكل مؤسَّسة اجتماعية وبخاصّة اللغة التي لها وظائف تؤدّيها داخل المجتمع، غير وظيفة « الإيصال » أو « التوصيل »، ولا تقل عن هذه الوظيفة أهمّية[٨٥]، نجد أنّ لهذه الدعوة أضراراً كبيرة وخطرة، فهي من ناحية تقضي على إيجابيات الثنائية التي أظهرناها في مناقشتنا فريحة في أثر ثنائية اللغة في المجتمع[٨٦]، وهي من ناحية أخرى تُوقعنا في مشاكل مستحيلة الحل، كما تُلحق بنا أضراراً كبيرة أوضحها أنصار الفصحى في ردودهم على الداعين إلى العامية[٨٧]. وتتلخّص هذه الأضرار بما يلي:

١ - إنها تهدم بناية التصانيف العربية بأسرها، وتضيّع الكثير من أتعاب علمائنا المتقدّمين. ولقد كان التطوير اللغوي نكبة على أصحابه، إذ لم يحكم على تراثهم القديم المشترك بالموت وحسب، بل هو ما يزال يقضي بين الحين والآخر على التراث القومي لكل شعب من هذه الشعوب بالاندثار. فالإنكليزي، الذي من عامة الشعب، لا يفهم اليوم لغة شكسبير[٨٨] الذي مات في القرن السابع عشر، بينما لا يستطيع أن يقرأ لغة من كان قبل شكسبير إلا قلّة من المتخصّصين. أما نحن العرب، وعلى اختلاف أقدارنا من الثقافة، فإننا نقرأ قصائد امرىء القيس[٨٩] ورسائل الجاحظ وغيرهما،

---

(٨٥) انظر الفصل الأول من كتابنا هذا.

(٨٦) انظر النقطة السابعة من نقاط هذا الفصل.

(٨٧) انظر محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ط ٣. دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٧٢ ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٨٨) شاعر مسرحي انكليزي في مصاف رجال الأدب العالمي، امتاز بتحليله عواطف القلب البشري من حب وبغض. له: « هملت »، و« عطيل » و« روميو وجوليات » (جبور عبد النور: المعجم الأدبي ص ٣٥٩).

(٨٩) من أشهر شعراء المعلّقات (٥٠٠ - ٥٤٠؟) لقّب بـ« الملك الضليل » و بـ« ذي =

فنفهمها جميعاً، إلا قليلاً مما ترجع صعوبته إلى دقة المعاني وصعوبة بعض المفردات.

٢- إن العرب سيضطرون معها إلى ترجمة القرآن الكريم إلى العامية، مما يفقده الكثير من سحره وإعجازه وتأثيره في النفوس.

٣- إن لهجات العامة لا يمكن الاعتماد عليها لتباينها واختلاف أوضاعها. لأنه، إنْ أردنا اعتماد العامية، لا ندري على أيٍّ لغة من لغاتها يجب الاعتماد، وبين كل لغة من لغاتها وأختها من تباين اللهجة واختلاف الأوضاع، ما لا يقل عن الفرق بين إحداها وبين اللغة الفصحى. وهكذا فإن اعتماد لهجة معيّنة في الكتابة لا يقضي على الثنائية اللغوية، إلا في منطقة واحدة من المناطق، وهي المنطقة التي جعلنا لغة الحديث فيها لغة كتابتها.

٤- إنّ اعتماد كل قطر عربي لهجته الخاصّة به يؤدّي إلى إضعاف التواصل بين الدول العربية، ولا يخفى ما لهذا الإضعاف من أضرار في مختلف المجالات. ولا شك في أن وحدة العرب اللغوية أقوى من وحدتهم السياسية، فيوم تفككت الدولة العباسية إلى دويلات متنافرة بقيت اللغة الفصحى تجمع هذه الدويلات جميعاً. ومن خلال هذه الوظيفة القومية للغة، واجه رجال الثورة الفرنسية مشكلة تعدد اللهجات، فكان رأيهم ما قاله على لسانهم الراهب غريغوار: «إن مبدأ المساواة الذي أقرّته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظيف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية، يؤدّي إلى محاذير كبيرة. وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة. فيترتّب على الثورة،

---

= القروح». له ديوان شعري ينطوي على فخر ووصف وغزل ووقوف على الطلل... الخ (فرديناند توتل: المنجد في الأعلام ص ٣).

والحالة هذه، أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية، وذلك بمحاربة اللهجات المحليّة، ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين »[٩٠]. واستناداً إلى هذا الدور الذي تؤدّيه الفصحى في مجال تعزيز القومية العربية، نرى أننا في عصر أحوج ما نكون فيه إلى هذا التعزيز. لذلك نعجب حين نسمع من ينادي منا بتمزيق لغتنا وأداة وحدتنا، في حين تتوالى الدعوات في بلاد الغرب، إمّا إلى لغة عالمية تجمع جميع سكان الأرض كافة (لغة الاسبيرنتو)، وإمّا إلى وضع لغة غربية تضمن للغرب وحدة روحية[٩١].

والذي نراه أن محاسن الفصحى أكثر من مساوئها، ومساوىء العامية أكثر من محاسنها، وأنه، إن كان من أهم مقومات الثقافة أن يتقن الإنسان عدة لغات بحيث قال الحلي[٩٢]:

بقـدْرِ لغات المرء يكثُرُ نفعُه ... وتلك له عند الشدائد أعوانُ
فبادرْ إلى حفظِ اللغات مسارعـاً ... فكلُّ لسان بالحقيقةِ إنسانُ[٩٣]

فأحرى بالعربي أن يتعلّم بالدرجة الأولى لغة تراثه وقرآنه وأداة تفاهمه مع مواطني الدول العربية الأخرى.

---

(٩٠) عن ساطع الحصري: آراء وأحاديث في اللغة والأدب، ط ١. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥٨ ص ٧٠.

(٩١) لقد دعا العالم الفرنسي جوليان باندا Jullien Penda في العام ١٩٤٦ إلى تلك اللغة بقوله: « إذا كنا نريد أن نضمن للغرب وحدة روحية فعلينا أن نجهز الحملات في سبيل إنشاء لغة غربية تضاف إلى لغات مختلف القوميات الغربية ». (عن كمال الحاج: في فلسفة اللغة، ص ٢٥٦).

(٩٢) عبد العزيز بن سرايا، صفي الدين الحلي (١٢٧٨ - ١٣٤٩ م). ولد ونشأ في الحلة (بين الكوفة وبغداد). شاعر عصره. توفي ببغداد. له ديوان شعري وه العاطل الحالي » و « الأغلاطي » و « درر النُحور » (الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ١٧ - ١٨).

(٩٣) عن كمال الحاج: في فلسفة اللغة. ص ٢٨١.

أما بالنسبة لمسألة ثنائية الفصحى والعامية، فالواقع الذي لا بد من الإقرار به، هو أن خط التطور اللغوي اليوم، تحت تأثير وسائل الإعلام وكثافتها من ناحية، ونتيجة ارتفاع مستوى الثقافة من ناحية أخرى، يسير عملياً بالفصحى إلى ملاقاة العامية في كثير من الخصائص الجوهرية الحيّة التي تتصف بها اللغة العامية اللبنانية وسائر العاميات في البلاد العربية، من عدم اعتمادها على الإعراب للدلالة على المعاني المختلفة، والاستغناء الكلي عن محنّطات الصيغ الكلامية التي زالت تماماً من واقع الإحساس والفكر والحياة، والابتعاد عن التقعُّر في الألفاظ، وقبول عدد كبير جداً من ألفاظ المخترعات الحديثة... الخ.

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فلا شك في أن نشر التعليم وجعله إجبارياً في مرحلتيه: الابتدائية والمتوسّطة، وتحسين وسائل التدريس، وإعداد المعلم الصالح، ونقل العلوم إلى العربية، وتبسيط قواعد النحو والصرف... الخ، هي من أنجع الوسائل في تضييق الهوّة التي نراها بين فصحانا وعاميتنا، وفي التخفيف، إلى حد كبير، من سلبيات ثنائية الفصحى والعامية عندنا.

وقد يكون من المفيد في مجال ردم الهوّة بين العامية والفصحى، الاعتناء بجمع كل المفردات العامية، ورد الاعتبار إلى كل ما يمكن رد الاعتبار إليه، وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه منها بغير إبعاد لها عن صورتها كلما أمكن ذلك[٩٤]. وفي مثل هذا فائدة كبيرة، وبخاصّة للشاعر والكاتب ومعلّم العربية وطالبها، فلا يعود المعلّم يُقدِم على شجب ألفاظ يستخدمها الطالب في إنشائه، بحجّة أنها عامية نابية، ولا يعود الطالب يتشكّك في مفردات لغته، أو يشعر أن لغته عاجزة عن إظهار شعوره ومكنونات نفسه.

---

(٩٤) انظر في الصدد هذا أحمد رضا: قاموس رد العامي إلى الفصيح ط ٢. دار الرائد العربي. بيروت. ١٩٨١.